

هَقْرُ الْفَقْرَاءِ عَلَى الْغَنِيَاءِ فِي الْإِسْلَامِ

لِلْأَسْتَاذِ مُحَمَّدِ الْخَضِرِ حَسِينِ

عصو مجمع فؤاد الأوقاف للغة العربية وإدارة كفاية أصول الدين

نظم الإسلام صلة المخلوق بالمخلوق جل شأنه فأرشد إلى الإيمان الخالص. ودل على مظاهر العبادات الصحيحة ولم يقتصر على هذه الصلة المقدسة. بل نظر إلى الناس وهم مدنيون بطبعهم، وعمد إلى ما يربطهم من صلوات. فعدفها، وأخرجها ضم في أصفى لون وأحسن وضع. عرفنا كيف تكون الصلة بين الإنسان ومن تصله بهم قرابة أو زوجية أو تعاون على القيام بما تستدعيه الحياة المنزلية فكان نظام الأسرة والمنزل محفوظاً بالطمأنينة والهدوء ثم عرفنا كيف تكون المعاملات القائمة على تبادل المنافع من نحو البيع والإجارة فأرشد السبيل إلى أن نتعامل ونتفارق على وفاق وإتلاف.

ثم نظر الإسلام نظرة بعيدة المدى إلى الفريق الذين يقعون في ضيق من العيش، ولا يستطيعون حيلة إلى ما يسد حاجتهم الحيوية، فأبت حكمته أن يظل البائسون بين ذوى اليسار يقاسون آلام الضراء، ويبيتون هم وأفلاذ أجدادهم في كرب من الجوع وانبرد، فوضع بين فريق البائسين والموسرين صلة أحكم ربطها وحاطها بسياج من العداة.

بنى الإسلام أحكامه وآدابه على أساس العزة والكرامة، ففكر للرجل أن يخلد إلى البطالة ويتعرض للصدقات وهو قادر على أن يضع يده في عمل يكسب به قوته، أو قوت من يعول، قال صلوات الله عليه (والذى نفسى بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير من أن يأتي رجلاً أعطاه الله من فضله فيسأله، أعطاه أو منعه).

وكره الإسلام لمن ابتلوا بقلّة ذات اليد أن يسارعوا إلى الاستجداء ولهم في التجميل متسع فانظروا كيف نبه القرآن الكريم على فضل قوم ضاقت أيديهم عن الكسب فلاذوا بالتعفف وارتدوا بالتجميل، فقال :

”لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمْ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا“ .

وبعد هذا التعفف من مفاخر الجماعة .

كأن الإسلام البطالة ونصح لمن وقع في فاقة بأن يحتفظ بماء وجهه ويتبرع عن التكفّف ما وجد للصبر على العسرة موضعاً ثم أقبل على أولى اليسار يربّي فيهم عاطفة الاحسان ويقمها على قواعد حكيمة رشيدة .

نراه قد عني بالاحسان انى طوائف خاصة ممن يحتاجون الى أن يعانوا على نوائب الزمان فأمر بالاحسان الى ذوى القربى . والآيات والأحاديث الواردة في فضل صلة الرحم وماتأتى به من خير الدنيا والآخرة لا يسع المقام لإيرادها ويكفى شاهداً على ما نقول إنه حث الرجل على أن يحسن إلى أقارب من كان صديقاً لأبيه . قال صلوات الله عليه (إن من أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولى) .

وأمر بالاحسان الى اليتامى ، ذلك أنهم فقدوا أحضان من كان يرعاهم ويكفيهم أمر عيشتهم وهم لضعفهم عاجزون عن أن يصلوا الى قوتهم بأيديهم .

وأمر الرجل بالإحسان الى الجيران ولو لم تربطهم به رابطة قرابة . قال صلوات الله عليه : (ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره) .

وأمر بالإحسان انى أبناء السبيل ذلك أنهم يقدمون على البلد وهم يجهلون موارد الرزق اولاتصل أيديهم الى كسب القوت بسهولة .

وقد جمع القرآن الكريم هذه الطوائف وأمر بالإحسان إليها في آية واحدة قال تعالى :

”وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ“ .

حرض الإسلام على الاحسان الى ذوى القربى واليتامى والجيران وأبناء السبيل وأقبل يدعو الى بذل المعروف على وجه عام ويهز عواطف الموسرين الى البر بكل فقير هزاً رقيقاً فتجدّه يعد على الصدقات بالوقاية من النار ويعد عليها بنعيم الجنة ويدفع ظن من يقع في نفسه أن الصدقات نقص في الأموال ، فيعد المتصدقين بتعويض ما أنفقوه في الدنيا قبل الآخرة قال تعالى :

”وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ“ .

فهذه الآية دللت على أن الصدقات من أسباب سعة الرزق ؛ ومن أصدق من الله قبلا
وتجسد القرآن الكريم يتلى على المصطفين من الناس فيذكر في خصالهم الحميدة رحمتهم بالفقراء
وصرفهم جانبا من أموالهم في إغايتهم قال تعالى :

”وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ“ .

ولا تنس أن من حكمة فرض الصيام أن يذوق الأغنياء مرارة 'الجوع' الشديد فيذكروا
ما يقاميه الفقراء من 'مثال' هذا الجوع المؤلم فيدعوه ذلك إلى أن يبسطوا إلى الفقراء أيديهم
بالاحسان ما استطاعوا ، كانت أم حاتم تكثر من 'الاحسان' وتقول : والله لقد مسنى من
الجوع ما آليت معه إلا أُمع سائلا شيئا .

أراد اشارع 'الايضوت' أحدا من الناس فصلل التصدق فرغب في الصدقة واعتد
بالقبيل أو الخفير مما يتصدق به فقال صلوات الله عليه (اتقوا النار ولو بشق تمره فمن لم يكن
فيكلمة طيبة) وقال (لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق) ، وهذا ضم
القليل إلى الكثير والخفير إلى الخفير صارت لقلته كثرة والحقارة عظاما ومن هذ يتيسر للإنسان
أن يدخل في قبيل المحسنين وإن لم يكن في سعة من الرزق .

ومن عناية الشارع باغاثة المهوفين أننا نجده يبحث من ليس بيده مال على أن يعمل
ليدرك فضل التصدق ، قال صلوات الله عليه (على كل مسلم صدقة) قالوا فان لم يجد ؟
قال (فليعمل بيديه فينتفع نفسه ويتصدق) .

عمل الرجل بيده ليتصدق على الفقراء شاهد صدق على بلوغ النفس في الكرم ورقة
العطف غاية سامية ، ومن أصدق الشواهد على رسوخ النفس في الرأفة والسخاء أن يؤثر
الرجل مسكينا ذا متربة بنحو معلوم أو منبوس وإن كان هو في حاجة إليه ، وإلى هذا
الصف من المحسنين يشير في القرآن الكريم بقوله تعالى :

” وَيُؤْتُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقِ شَحْنَهُ نَفْسَهُ
فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ“ .

ولا تعجبوا للرجل يعمل بيده ليغيث المهوفين ، ويؤثر بالشئ وهو في حاجة إليه
فإنه يجد في الاحسان وإيثار لذة تجعل ما أحسن أو أثره شيئا حقيقا .

يريد الشارع من المتصدق أن يكون سمح النفس ، فأرشده إلى أن ينفق من طيب ما عنده ولا يزدري الفقير فيقصد إلى الردىء من نحو طعام أو ثياب فيتصدق به وهو قادر على أن يتصدق بما هو خير منه ، قال تعالى :

” يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ “ .

حث الإسلام على الصدقات وحاطها بأداب تجعلها لدى المتصدق عليه سائغة هنيئة . ندب إلى أن تعطى الصدقات في خفاء، ذلك أن إعطائها ذا الحاجة في علن يكسر خاطره وقد يأبى قبولها حيث يكون ممن يتجملون ويكروهون أن يطلع الناس على أنهم في ناقة وأشار إلى هذا الأدب رسول الله صلوات الله عليه ، حين ذكر السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم القيامة، فقال : (ورجل تصدق بصدقة وأخفاها حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه) وأذكر أنى كنت قد عرفت جمعية خيرية في بعض المدن الكبرى تبحث عن الفقراء من طرق سرية وتبعث إلى من تحققت فقرهم بمبا من المال على طريق البريد دون أن يعلموا الجهة التي أرسلتها إليهم .

ونبه الشارع الحكيم على أن فضل الصدقات في يبذلها الإنسان إجابة لداعى الرحمة، ولا ينتظر ممن يبذلها لهم أو يقابلوها بجزاء أو شكر، قال تعالى في وصف المصلغفين من عباده :

” وَيُطْعَمُونَ الْعُلَّامَ عَلَىٰ حَبِّهِۦٓ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا “ . إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لِرُؤُفِهِۦٓ اللَّهُ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا “ .

ومن أجمل آداب الإحسان أن يبذله الرجل بوجه طلق فإن طلاقة الوجه تنبئ بأن الإحسان صادر عن نفس عريقة في الكرم ، شاعرة بأن ما تتصدق به إنما هو رزق للفقير أجراه الله على طريقها .

وأصدق شاهد على سماحة الرجل ورقة عاطفته أن يواصل بالإحسان، ولا يقطعها عن دى الحاجة ولو كان يمسه بأذى، وقد نبه القرآن الكريم لهذا الأدب العظيم ، فقال تعالى :

” وَلَا يَأْتِلِ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَنِ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ “ .

ومن أدب الإحسان أن يجيب الرجل المنّ بما أعطى ، وإنما يعقب المنّ عطاء لم يكن ناشئا عن فضيلة ولا عن عاطفة نبيلة ، وقد جعل الشارع المنّ ماحقا للصدقة فلا يقام لها وزن ولا ربح لها مثوبة ، قل تعانى :

”يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى“ .

لا يلبق بالمحسن أن يمنّ على الفقير بما أعطى ولا أن يتبع إحسانه بأذى ، ولا يلبق بمن تلقى الإحسان أن يقابله بالكفران ، وكفران النعمة قد يكون سببا لقطعها ، والذين يواصلون الإحسان ولو مع مقابته بالكفران ليسوا بكثير .

أمر الشارع بإنارة الفقراء على وجه عام دون أن يعين وقتا للتصدق أو مقدارا لما يتصدق به ، بل وكل ذلك أنى استطاعة الرجل . وسماحة نفسه . وشعوره بحاجات البائسين ، وجعل هذا مصمرا يتنافس فيه عشاق مكارم الأخلاق ، ويتفاضلون فيه درجات .

وفرض الشارع كفارات على بعض ما يرتكب من المخالفات ، ونظر في تقرير هذه الكفارات إلى حاجة الفقراء ، فجعل من أصنافها إطعام المساكين ، كما جعل من أصناف كفارة النيمين إطعام عشرة مساكين ، وفي أصناف كفارة الإفطار في رمضان عمدا إطعام ستين مسكينا . وكذلك جعل إطعام المساكين كفارة للإحلال ببعض وجبات الحج .

علم الشارع وهو علام الغيوب أن في أساس شحا . وأن في الناس أهواء طاغية فم يكتف بم دعا إليه على وجه التذكير بمكارم الأخلاق من إغاة المنهوفين . فأذن الأغنياء بأن في لأموال التي تحت أيديهم حقوقا للفقراء يجب أن يسلموها لهم طامعين أو مكهين . وقدر هذه الحقوق بحكمة ، وعين لها أوقاتا ، وتلك فريضة الزكاة .

فرضت الزكاة على الأغنياء ، وانغنى في نظر الشارع من مئلك عشرين دينارا فما فوقها . كما فرضت الزكاة في ملكك الناس من الأنعام . أو تحرجه المزراع أو الأشجار من اجوب والثمار ، وأحكام الزكاة مفصلة في كتب الشريعة وإنما زيد التنبيه لعظم فائدتها في إصلاح الأخلاق وحل الاجتماع حتى استحقت أن تعد في أركان الإسلام الأربعة بعد الشهادتين .

يقع الفقراء العاحزون عن اكتساب أقاتهم في كثير من ابلايا : تعتل أجسامهم لقبة نغذاء الكافي لحفظ صحتهم ، وتقم قلوبهم خوفا على حياتهم أو حياة من يعز عليهم من أبنائهم وأزواجهم ، وقد يحملون في أنفسهم عدا لئدوى لأموال إذ يسبق أن ذهائهم أن اموسرين شاعرون بما هم فيه من البأساء والفسراء وه يكثر ثوبهم .

وحيث كان من مقاصد الإسلام تكوين أمة قوية الأجسام ، مطمئنة القلوب متماسكة برباط الوداد والاتحاد ، مبتعة بأمن شامل ، يبادر إلى علاج مرض اليأس والفاقة ، يفرض الزكاة على وجه يجعل الفقراء العاجزين عن الكسب في كفاف .

فاذا قلنا : إن الشارع جعل شطرا من الزكاة يصرف إلى الفقراء والمساكين وشطرا منها يصرف في الاستعداد للدفاع ، فكأنما قلنا : إن الشارع قد فرض الزكاة لتكون وسيلة للقوة المادية والقوة النفسية ، وبنفوتين تبلغ الأمة أقصى ما تروم من العزة والمنعة .

ندب الإسلام إلى الصدقات ، وفرض الزكاة فقدرها أحسن تقدير ، وأوجب على الناس أن يطعموا المسكين الجائع ولو كانوا قد أدوا زكاة أموالهم ، وقد توعد على ترك هذا الواجب الإنساني بالعذاب الأليم ، اقرؤوا إن شئتم قوله تعالى :

” كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۖ إِلَّا الَّتِي آمَنَتْ بِالْيَمِينِ ۗ فِي جَنَّةٍ يَتَسَاءَلُونَ ۗ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ۗ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۖ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۗ وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ “ .

يجازى بعذاب الحريق من منع المساكين حقوقهم من الزكاة ، ومن أبصر مسكينا في جماعة فلم يعنه ، وقد دل القرآن الكريم على أن قسطا من هذه العقوبة يستحقه من لا يحرص المومنين على إطعام المساكين ، يدل على هذا قوله تعالى :

” خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۗ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۗ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۗ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِآيَةِ الْعَظِيمِ ۗ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعْمِ الْمَسْكِينِ “ .

هذه كمنبت في حقوق الفقراء على الأغنياء ، ثلث تعاونت الأمة والمولة على مكافحة البطالة ، ثم عموا بالتى هي أقوم على أن يؤدي الأغنياء هذه الحقوق ، فتصل إلى أربابها على وجه منظم لأصحابها في مقدمة الأمم القوية في أخلاقها ، المنطمئنة في عيشتها ، وادا ظفرت الأمة بقوة الأخلاق وطمأنينة العيش ، فهناك تظهر طبقاتها متماسكة ما بين الثروة والكفاف ، وهناك تكون العزة والسعادة .

محمد الخضر حسين